في ذكرى السياب الثانية

الأسطورة والكائن الخرافي

لم يكن السياب ينظم الشعر ترفا ذهنيا او وسيلة للشهرة الزائفة والاثراء العاجل ، انما كان نظم الشعر عنده غاية بنفسها وعملية خلق غذاها بدمائه وجعل من حياته قربانا لها ، « .. وكان يعلم ان كتابة الشعر هي اصطناع موقف بازاء الكون والانسان والحضارة » (١) وليس طريقا للاستجداء او بوق دعاية او صرخات عاطفية كما كان في كثير من مجاليه سابقا ، « ان الشعر مغامرة تطمح الى ان تفسر العالم وتغيره »(٢) انه تعبير عن صراع الانسان مع البشر ، ولقد قال السياب يوما : « لو قيض لنا ان نطلع على الاثار الادبية التي قال الزمن فيها كلمته بانها رائعة خالدة لوجدنا ان سر خلودها وروعتها كامن في انها جعلت من الصراع بين الانسان وبين الشر وقواه موضوعها ولسنا في حاجة الى القول ان تاريخ الانسان كان وما يزال صراعا بين الشر وبينه وان التعبير الادبي عن هذا الصراع انما هو تعبير عن الحياة » . (٣)

« لقد وعى السياب ازمات الانسان في عصره وبيئته وعي تجربة ورؤيا » (٤) ، وعاش عقليتين : الاولى متطورة نشأت نتيجة لثقافته الواسعة ومعطيات الحرب العالمية الثانية ، والاخرى راكدة تتامل الاشياء من خارج ولا تحاول تغييرها فاضطربت شخصيته بين الرفض والخنوع وبين شمول ذي ابعاد مترامية في بيئة محدودة يرتد فيها الطرف حسيرا ولم تجده الاراء الوجودية نفعا ولم تعنه صحته المتدهورة على ان يحفظ لنا الموهبة الفذة مدة اطول .

لم لجأ السياب ـ هذا الكائن الخرافي ـ (٥) الى ادخال الرموز والاسطورة في شعره وبصورة واسعة ولاول مرة في تاريخنا الادبي ؟ قال بعض النقاد : « ان الاسطورة عنده هرب من الواقع » (٦) ، « وان سيزيف وتموز وعشتار وضعوا كلافتات لعرض العضلات الثقافية » (٧) ، « وهل يقرأ السياب ما يقرأ من الاساطير باحثا في ثناياها عن موضوعات شعر ؟! اذن فالعملية لا تعدو كونها نظم الاسطورة ، ام ان قراءة الاساطير هم من هموم السياب الثقافية العامة » (٨) ، وقد أجاب الشاعر نفسه فقال : « الواقع ان الشاعر الان يعيش ازمته الكبرى ، انه يعيش في عالم لا يعطيه سوى علاقات متدهورة بين الانسان والانسان وسوى تعكير وتحطيم مستمر لوجوده وانسانيته ، ان واقعنا لا شعري ، ان الاسطورة الان ملجأ دافيء للشاعر وان نبعها لم ينضب ولم يستهلك بعد ولهذا تراني ألجأ اليها في شعري كثيرا » . (٩)

وفي عصور مظلمة خلت كانت الخرافات والاساطير تملأ كل بيت ومقهى تفسر الظواهر وتكبح الجماح وتعري الانسان من مسؤولياته وتعزو ما يعتريه من ظواهر غريبة الى المجهول والمبهم واذا بالشعراء لا يعيرونها التفاتا : شغلوا بالمديح والاعطية والاكف التي تصفق والشفاه وما تنفرج عنه من أحسنت ، فلم جاء هذا الشاعر ـ وفي اعقاب الحرب العالمية الثانية بعد ان انتفض الانسان من وجود مليء بالخرافة الى واقع الصق بالارض مبتعدا عن الاسطورة والوهم ـ لينظم لنا الاسطورة وليدخلها بأصالة في شعره ؟ الانه نشأ في بيئة مليئة بالقصص والاساطير فترعرع في بقايا جو اسطوري أراد ان يخلده بشعره ، ام انه اطلع اطلاعا واعيا على الاساطير العالمية فاستفاد منها ، ام عرف من مطالعاته لاداب اخرى ان شعراء عظاما استهوتهم الاساطير فاستخدموها في اشعارهم ، ام انه كان ذا مخيلة واسعة قادرة على الخلق والتصور فنفذ الى الاساطير يستعين بها على التعبير عما يجول في مخيلته ، ام انه رغب في ادخال دماء جديدة الى الشعر المعاصر فرأى في الاسطورة خير ما يوشح شعره بجو معين خاص ، ام انه وجد نفسه احيانا غير حر في التعبير عن معنى معين لسبب سياسي او غيره فأعانته الاسطورة ان يحيط بعض مقاصده بشيء من الغموض ؟! قد يكون هذا وذاك ولكنه اراد ايضا ان يثأر لتلك العصور الطويلة المليئة بالاساطير والخرافات وان يثأر للشعر فيها ولشعرائها الذين فاتهم ان يروا في هذه الاساطير طاقة موحية تعجز عن تأديتها الكلمات المستعملة المألوفة فلم يجدوا فيها ما يستأهل العناء ، فجاء هذا الشاعر المتأخر وعرف كيف يعود الى اساطير تلك العهود فيربط بها الماضي بالحاضر وينفذ عبر اجوائها الى المستقبل وبرؤيا واضحة ، وان صح هذا في الاسطورة المحلية او الشرقية فهو لا يعني ان ليس للاسطورة العالمية مكان في شعره ، فالاحاسيس الانسانية وبواعثها متشابهة كثيرا في هذه المظان .

يقول الشاعر : « نحن نعيش في عالم لا شعر فيه ، أعني ان القيم التي تسوده قيم لا شعرية والكلمة العليا فيه للمادة لا للروح ، فماذا يفعل الشاعر اذن ؟ عاد الى الاساطير والى الخرافات التي ما زالت تحتفظ بحرارتها لانها ليست جزءا من هذا العالم ، عاد اليها ليستعملها رموزا يبني منها عوالم يتحدى بها منطق الحديد والذهب » . (١٠)

لقد تأثر السياب بالتراث المسيحي ايضا ، فهل هناك ما يربط بين استعمال الشاعر للرمز والاسطورة وبين تأثره ذاك ؟ أراد السياب ان يتشبه بالسيد المسيح أم أعجب بالعذاب الذي عاناه ؟ أكان السياب يعمل وبوعي على أن يخلق من نفسه قديسا جديدا في عصرنا هذا :

أعين البدقيات يأكلن دربي ،
شرع تحلم النار فيها بصلبي ،
ان تكن من حديد ونار ، فأحداق شعبي
من ضياء السموات ، من ذكريات وحب
تحمل العبء عني فيندى صليبي ، فما أصغره
ذلك الموت ، موتي ، وما اكبره . (١١)

« ان الشاعر يعود الى التراث المسيحي في عهديه القديم والحديث حتى يحتل شخص المسيح مكان البطولة في المأساة الكبرى عذابا وموتا وبعثا » (١٢) ، لقد حاول السياب جهده وبانفعال كبير ان يقول للناس ان الشاعر ليس كما كان في العهود الخوالي : « متفزلا او مادحا او حكيما ، انما هو المنقذ وهو الضحية ايضا ، هو الذي يستطيع بناء هذا العالم من جديد ، وبالرغم من الشخصية الفنية التي تأبى الحقائق العلمية الرياضية فان الوجود عند الشاعر ذو حدين : خطأ او صواب ولا ثالث بينهما فيقيم مثاليته على مساوىء واقعه غير المثالي فتضطرب عنده القيم اذ لا يستطيع لهذا الواقع محقا وهذا ما أودى بالسياب وان يرى علاقة وثقى تربط بين النبي والشاعر فكلاهما يبحثان عن الخير ويحاربان الشر ويتيحان الخلاص للبشر : « لو اردت ان اتمثل الشاعر لما وجدت اقرب الى صورته من الصورة التي انطبعت في ذهني للقديس يوحنا وقد افترست عينيه رؤياه وهي تبصر الخطايا السبع تطبق على العالم كأنها اخطبوط هائل » . (١٣)

وكان لا بد للسياب ان يموت فمن وجد نفسه يحمل عبئا كهذا ذا

متناقضات شتى لا يستطيع ان يسير بهدوء على الدرب ، ومرض السياب مدة طويلة وما كان هذا المرض الا عذرا للخاتمة وأمرا منطقيا يعرفه الشاعر نفسه قبل كل انسان ، لذا كان يدفع عنه هذا المصير بكل قواه ويسفح ذاته في مصارعة الزمن مع ادراكه لحتمية النهاية وما هذه المستشفيات والادوية والقناني الا امور تافهة ازاء هذه الطاقة الشعرية التي تفجرت خلال المرض فانتجت ثلاثة دواوين شكلت نصف انتاجه تقريبا :

سأعجز بعيد حين عن كتابة بيت شعر في خيالي جال
فدونك يا خيال مدى وآفاقا وألف سماء
وفجر من نجومك من ملايين الشموس من الاضواء
واشعل في دمي زلزال
لاكتب قبل موتي او جنوني او ضمور يدي من الاعياء
خوالج كل نفسي ، ذكرياتي ، كل احلامي
واوهامي
واسفح نفسي الثكلى على الورق . (١٤)

وسرعان ما تدارس الكتاب مرض الشاعر والظروف التي مر بها فرأوا ان يقسموها الى مراحل : شعور السياب الدائم انه سيموت ، مرحلة المرض والامل بالشفاء ، مرحلة العذاب الفردي او المرحلة الايوبية، مرحلة الاستسلام للموت ومهادنته ، واخيرا مرحلة ما بعد الموت ، وظهر لدينا اصطلاح جديد في الادب العربي : تجربة الموت ، وقد مات الشاعر يوم ٢٤ كانون الاول ١٩٦٤ ، « وهكذا كان رحيل السياب في ليلة ميلاد السيد المسيح ولست أدري أمجرد صدفة هي أم علامة ترمز الى نبوة الشاعر » . (١٥)

وها قد انقضت سنتان على الفاجعة وكثرت المقالات التي كتبت عن الشاعر والقصائد التي رثته والاسى الذي حل بالقلوب فقد شعر الجميع انهم مشاركون في مأساته ـ وما عرفوا انها حتمية تآمر فيها حتى التاريخ ـ وتساقطت دموع من لم يمدوا للشاعر يد المساعدة وكان قبل المرض لا يملك احيانا الغذاء الكافي وبعد المرض يعجز احيانا عن شراء دواء ، « ان مأساته عارنا جميعا » (١٦) . هذه الظروف والملابسات التي احاطت بموت الشاعر قد خلقت منه اسطورة سيطول الحديث عنها وستتكون منها هالة تحيط بالشاعر وتجعل منه قديسا للشعر العربي المعاصر .

فهل كان هذا الكائن الخرافي قديسا حقا ؟ وهل قدر له ان يحمل المشعل للاخرين ؟ هذا ما ستكشف عنه الايام .

بغداد — جلال الخياط

---

١ ـ محيي الدين محمد ، شعر ، العدد ١٤ ، القاهرة ١٩٦٥ ، ص١٥
٢ ـ خالدة سعيد ، البحث عن الجذور ، بيروت ١٩٦٠ ، ص ٨
٣ ـ بدر شاكر السياب ، الاديب ، العدد ١٠ ، بيروت ١٩٥٦ ، ص ٢٢ .
٤ ـ خليل حاوي ، الاداب ، العدد ٢ ، بيروت ١٩٦٥ ، ص ٢

بدر شاكر السياب

***

٥ ـ في احدى قصائد الشاعر ، انشودة المطر ص ٩٧ :
ذلك الكائن الخرافي في جيكور ، هوميرٌ شعبه المكدود
جالس القرنصاء في شمس آذار وعيناه في بلاط الرشيد
يمضغ التبغ والتواريخ والاحلام ، بالشدق والخيال الوئيد
٦ ـ لور غريب ، شعر ، العدد ١٨ ، بيروت ١٩٦١ ، ص ١٨٣ .
٧ ـ محيي الدين محمد ، المجلة ، العدد ٧٩ ، القاهرة ١٩٦٣ ، ص ٨٨ .
٨ ـ مدني صالح ، شعر ، العدد ٢٣ ، بيروت ١٩٦٢ ، ص ١٤٥ .
٩ ـ محمود العبطة ، بدر شاكر السياب والحركة الشعرية الجديدة، بغداد ١٩٦٥ ، ص ٨٦ .
١٠ ـ بدر شاكر السياب ، شعر ، العدد ٣ ، بيروت ١٩٥٧ ، ص ١١٢ .
١١ ـ من قصيدة « المسيح بعد الصلب » ، انشودة المطر ، ص١٤٩
١٢ ـ انطون غطاس كرم ، حوار ، العدد ٣ ، بيروت ١٩٦٥ ، ص١٢١
١٣ ـ بدر شاكر السياب، شعر ، العدد ٣، بيروت ١٩٥٧ ، ص١١١
١٤ ـ بدر شاكر السياب ، اقبال ، بيروت ١٩٦٥ ، ص ٤٠ .
١٥ ـ حسقاني علي الكردي ، الرائد العربي ، العدد ٥٣ ، الكويت ١٩٦٥ ، ص ١٩ .
١٦ ـ أحمد رشدي حسين ، حوار ، العدد ٣ ، بيروت ١٩٦٥ ، ص ١٢٤ .

في السوق :

الناس والحب

مجموعة قصصية جديدة

تاليف

محمد ابو المعاطي ابو النجا

منشورات دار الاداب